

الربانية.. بين الشمول والاجتزاء (1)



الجمعة 17 يناير 2020 10:33 م

إخوان أون لاين - قسم الدعوة

كثيرًا ما نستخدم مصطلح "الربانية" في أدبياتنا، بل وفي أحاديثنا العابرة، وقد غلب استخدامنا هذا المصطلح للدلالة في معنى إحسان العبادة، فالإنسان الرباني هو الإنسان العابد، الذي تظهر عليه علامات الصلاح والتقوى، كآثر من آثار إحسانه للعبادة. بل كثيرًا ما نُقصر معنى العبادة المرتبط بالربانية على العبادات المحضة والشعائر التعبدية؛ فالرباني هو ذلك الإنسان الروحاني الشفاف صاحب الصلة الحسنة مع الله، وكل ما سبق صحيح من صفات الإنسان الرباني، ولكنه في الحقيقة لا يغطي إلا جزءًا من مفهوم الربانية، كما وردت في القرآن الكريم.

فأركان الربانية في المفهوم القرآني خمسة: أولها إحسان العبادة، وثانيها طلب العلم وتدارسه والتفقه في الدين، وثالثها: التعليم والدعوة وإرشاد المجتمع، ورابعها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخامسها الجهاد في سبيل الله.

فأما الركن الأول للربانية، وهو إحسان العبادة، فمأخوذ من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ (آل عمران: من الآية 79). فالربانية التي يتصف بها ويدعو إليها من آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة - وكذلك أتباعهم - هي الإيمان بالله، والتوجه بالعبادة له وحده دون سواه "قيل إن أبا رافع القُرظيَّ والسيد النجرايَّ قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتريد أن نعبدك وتتخذك ربًّا، فقال عليه الصلاة والسلام: "معاذ الله أن يُعبدَ غيرُ الله تعالى وأن نأمرَ بعبادة غيره تعالى فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرتني"، فنزلت الآية، والربانيُّ منسوبٌ إلى الرب بزيادة الألف، وهو الكامل في العلم والعمل، الشديد التمسك بطاعة الله عز وجل ودينه" (تفسير أبو السعود، بتصريف).

ولا شك أن الإنسان الرباني المنسوب إلى الله تعالى يعبده عبادة المشاهدة والمراقبة، كما جاء في حديث جبريل "قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تُعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك" (رواه البخاري ومسلم). فالمشاهدة أن يعبد الله كأنه يراه، والمراقبة أن يعبد الله مستشعرًا ومستحضرًا نظر الله إليه. ولا شك أن العبادة بهذه الكيفية لها أعظم الأثر على الإنسان فتجعله شفافًا روحانيًّا، كما تنعكس على سلوكه وأخلاقه فيكون من أحسن عباد الله خلُقًا وأقومهم سلوكًا.

وأما الركنان الثاني والثالث للربانية فهما مرتبطان بالعلم وتعلّمًا وتعليمًا، وهما مأخوذان من بقية الآية السابقة أيضًا، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: من الآية 79). فقد بينت الآية أن طلب العلم وتعلّمه ومدارسه والتفقه في الدين، وتعليم الناس ودعوتهم وإرشادهم إلى الحق والخير من أركان الربانية. ولذلك فقد جعل الإسلام طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ" (رواه ابن ماجه وصححه الألباني). كما جعل الإسلام العلم طريقًا إلى الجنة. عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ. وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ" (رواه مسلم). عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ يَرِدُ اللَّهَ بِهِ خَيْرًا يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ" (رواه أحمد وصححه الأرنؤوط). قال الشافعي: "طَلَبُ الْعِلْمِ أَمْضَلُ مِنْ صَلَاةِ النَّافِلَةِ" (مسند الشافعي). وقال الحسن: "كَانَ الرَّجُلُ إِذَا طَلَبَ الْعِلْمَ لَمْ يَلْتَبِثْ أَنْ يَرَى ذَلِكَ فِي بَصَرِهِ، وَتَخَشَعَهُ، وَيَلْسَانَهُ، وَيَدِهِ، وَصَلَاتِهِ، وَزُهْدَهُ" (الإتحاف).

أما العلماء فلهم مكانة عظيمة في الإسلام تفوق مكانة العباد والزهاد. عن أبي أمامة الباهلي، قال: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ" ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحَوْتُ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ" (رواه الترمذي وصححه الألباني) وعنه صلى الله عليه وسلم أنه

قال: "إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّىٰ الْحَيْتَانِ فِي الْبَحْرِ وَإِنَّ قَاضِيَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَقَاضِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوْرَثُوا دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظِّ وَافِرٍ" (حسنه الأرنؤوط بمجموع شواهد).

وأما الركن الرابع من أركان الربانية، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمأخوذ من قوله تعالى في حق بني إسرائيل: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ لَوْلَا يُنَاهِهِمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنِ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة: 62 - 63). فالربانيون لا يسكتون عن هذا العوج، ولا يصمتون أمام هذا الانحراف، ولكنهم يجهرون بكلمة الحق مهما كانت الظروف، ومهما جلبت عليهم من متاعب، ومهما كلفتهم من أثمان. ولذلك قال الله لهم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًىٰ وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: 44). فالربانيون مؤتمنون على حفظ الوحي وبيانه للناس، فلا تمنعهم خشية كبير أو عظيم من توضيح الحق والجهر به. ولذلك عندما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أفضل الجهاد قال: "كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ" (رواه أحمد وصححه الأرنؤوط).

وأما الركن الخامس من أركان الربانية، وهو الجهاد في سبيل الله، فمأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِئُوسٌ كَثِيرٌ مِّمَّا وَهَبُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: 146 - 148). فقد وصفت الآية الربانيين من أتباع الأنبياء بأنهم مجاهدون في سبيل الله، وأن نفوسهم عصية على الوهن والضعف والاستكانة مهما أصابهم من أذى أو لحق بهم من ضر في سبيل الله، وأنهم مع إقدامهم وجهادهم وثباتهم وصمودهم يداومون على الذكر والدعاء والاستغفار واهتمام النفس بالتقصير، ويطلبون من الله أن يغفر لهم ويثبت أقدامهم وينصرهم على عدوهم؛ فهم يثقون بالله أكثر من ثقتهم بأنفسهم، ويعتمدون على الله أكثر من اعتمادهم على عقولهم وسواعدهم، ويأخذون مع ذلك بكل الأسباب، ويسفرغون كل ما لديهم من جهد وطاقة، ولذلك كان الجزاء من جنس العمل، فلم يؤخر الله عنهم ثواب الدنيا من نصر وغيره ولأجر الآخرة خير.. ﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

هذه هي الربانية كما جاءت في كتاب الله؛ فمن أراد أن يأخذها بمفهومها الشامل فعليه أن يستجمع أركانها الخمسة: العبادة والعلم والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله. وعلى المرين أن يدركوا هذه الحقيقة فيكون تركيزهم على تكوين فرسان النهار لا يقل عن تركيزهم على تكوين رهبان الليل، واهتمامهم بالعلم تعلماً وتعليماً ودعوة لا يقل عن اهتمامهم بالعبادة والنسك وتعظيم شعائر الله، واهتمامهم بتربية الأفراد على الإيجابية والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقل عن اهتمامهم باستقامة سلوك الفرد وتميزه في الجانب الإيماني والتعبدية، وتعويد الفرد على المجاهدة وحياة المجاهدين، والعيش بنية الجهاد وإعداد النفس له، لا يقل عن بلوغ مرتبة الإحسان في العبادة.

